رسائل غرام

بين نساء شهيرات ورجال عظام

الرسالة التاسعة

من جوزيفين الى نابوليون بونابرت

(لا نخال أحداً من القراء يجهل اسمَي جوزيفين وبونابرت وما وقع بينهما من النفور الذي أفضى الى الطلاق . وكان ذلك في أواخر سنة ١٨٠٩. الأ ان جوزيفين ظلت تراسل نابوليون حتى أيامها الاخيرة . ولو سمحت لها الدول المتحالفة لرافقتهُ الى منفاه . وكان موتها في سنة ١٨١٤ أي بعيد سقوط نابوليون . وقد وصفها جميع المؤرخين بالصفات الطيبة وأجمعوا على ان نابوليون كان مديناً لها بأمور كثيرة لا يسعنا الاسهاب فيها الآن . قبل انها كانت تتشاءم من ارتقائهِ الى العرش وتخشى ان يحمله ذلك على طلاقها والاقتران بأميرة من أميرات الأسر المالكة . وقد تم ذلك . أما الرسالة الآتية فقد بعثت بها اليهِ على أثر ولادة وليّ عهده من ماري لويز) :

صحوت اليوم وقرع النواقيس يملأ الجوّ وهزيم المدافع يرنّ في الفضاء . فسألت عن السبب فقيل لي ان جلالة الامبراطورة قد وضعت مولوداً سيرث عرش فرنسا ويضيف صفحة مجدٍ جديدة الى تاريخ آبائهِ . وقد كنت أودّ لو بلغتني هذه البشارة منك قبل ان اسمعها من افواه الناس فكنت افرح لفرحك وتقرّ عيناي بأن ترى لك من يخلّد لك ذكرك ويورثه للأجيال المقبلة . فان ساءك انني تمنيت سماع هذه البشارة من فمك فان ما كان بيننا من العهد السابق شجّعني على تعليل نفسي بهذه

الامنيَّـة . ولعلّ ذكرى أيامنا الماضية تشفع بي لديكَ وتبدد عن محياك غمامة الكدر والاستياء

لست اقصد يا صاحب الجلالة ان اراضيك بهذه الرسالة او أكفّر عن سيآتي الماضيـة اليك . فان تلك السيآت أعظم من ان يشفع بها ما اعانيـه من مضض هذا الفراق واحتمله من اراجيف الوشاة . لاسيما وانني لا أعرف لنفسي حسنةً سوى انني أحببتك حباً يقرب من العبادة فكان جزآء حبي لك انك فصمت عرى مواثيقنا المقدسة بحجة انني لم ألدْ لك من يرث عرشك من بعدك . وبلغتْ منك القسوة أن اتهمتني بامور ما أنزل الله بها من سلطان

ولست بلائمتك على تصرّفك هذا يا صاحب الصولجان . ولكن راعني ما رأيت نفسي فيه من اليأس . فرأيت ان أبسط اليك كتابي هذا واهنئ شعبك بولي عهدك ووارث عرشك . مع انني احسبك في غنى عمن يخلد لك ذكرك لان الذكر الذي قد خلفته ستتوارثه الاجيال المقبلة خلفاً عن سلف . ولسوف يأتي يوم يرى فيهِ العالم ان الالهة أساءت اليَّ اكثر مما اسأتُ انا اليك اذ لم تقدّر لي ان أهبك من يخلد لك ذكرك من بعدك . لذلك حاولتَ ان تنتزع حبي من قلبك . فلجأت الى غيري لتبلغ بها ما كانت نفسك تطمح اليه . فهنيئاً لهـا من امبراطورة سعيدة وهنيئاً لفرنسا بوارثها المقبل

ولقد رضيت بنصيبي هذا بعد ان احتملت منهُ في اول الأمر ما تنوء من ثقله راسيات الجبال . وكنت أقول يومئذٍ ان الزمان هو الطبيب

الاكبر فلن يمرّ العام حتى انسى ما بيننا من وعودٍ وعهود . وهوذا الآن قد مرّ ذلك العام وانا لا ازال اعاني ما كنت اعانيه يومئذٍ من غصص وحسرات

والذي يحزنني اكثر من كل شيءٍ هو انني محرومة رؤيتك اذ تمرّ بي ايام طويلة مملّة ولا ارى لك حتى شبه خيال الاَّ في الحلم . ولو تعلم شدة هذا العقاب لكان لي من دموعي شافع لديك . ولكنك قد اغمضت عينيك فلست ترى ما اعانيه من غصص مبرّحة . واذا كان في العالم قوة تمنعني عن اخماد أنفاسي بيدي فذلك لأني واقفة على عتبة الأبدية وقد غطست فيها ركبتاي . فلماذا أضيف الى آثامي العديدة اثماً آخر بوضع حدٍ لأنفاسي بيدي ؟ وفضلاً عن ذلك فان موتي يورثك من تأنيب الضمير ما لا اطيق ان أراك معذباً به . ولأشهى على قلبي ان أراك سعيداً ولو على بعد منك ، من ان تعيش معذباً وأنا قريبة اليك

كان ينبغي ان افرح لفرحك اليوم . ولكنّ ذكرى عهودنا السالفة لم تُبقِ في قلبي مجالاً للسرور اذ كيفما التفتُّ أرى ما يروعني من الفرق بين الامس واليوم . ويزيد روعي كلما تأملت في ما عسى ان يجيء به الغد وقد يتمثل لي شبح الغد بصورة تنين هائل . فيزيد بي انقباضي ولا أرى من خلال ظلمته الحالكة الا شعاع املٍ ضعيف هو ان انام اليوم ولا استيقظ في الغد . ترى هل يحزنك غداً موت امرأة كنت تعبدها بالأمس ؟ أم يصدق فيك المثل القائل ان البعيد عن العين بعيد ايضاً عن القلب ؟

لا يسوءك عتابي هذا فان اليأس الذي انا فيهِ هو الدافع لي على النطق بكلامٍ ربما لا ترضاه . وانني ليدهشني فرط الشجاعة التي بدت مني في خلال العام الغابر اذ لم اكن اصدّق قبلاً ان امرأةً مثلي تستطيع ان تحتمل ما احتملته من عذاب وشقاء . والذي شجعني على احتماله هو أملي ان يكون لي من ورائه كفّارة عن هفواتي تشفع بي لديك وتنسيك كل شيءٍ ما عدا حسنتي الوحيدة وهي انني أحببتك حباً مخلصاً على رغم ما كان يبلغك عني من الاراجيف . وليست غايتي الآن ان ادافع عن نفسي بين يديك ، فإن ما كان بيننا قد انطوت صفحته ، وقضاءك لا مرد له . وانما أردت ان انبهك الى أمرٍ قد يسهو عنهُ الملوك والعظماء . وهو ان واضع الشرائع يجب ان يكون نموذجاً للعدل . واما انت فقد وضعت نفسك موضع الخصم والحكم ، وسددت اذنيك عن سماع صوت الرحمة والرأفة

لما كنت أسمع بانتصاراتك الباهرة كنت أفرح وأشعر كأنني حاملة راية النصر . ولا أزال حتى الآن أتوق الى سماع أخبار انتصاراتك وأتمنى ان تزيد منها كل يوم صفحةً جديدة الى تاريخك المجيد

وفي الختام اقبل تهنئاتي لك بوارث عرشك وأطال الله بقاءك حتى ترى أولاد أولاده . . . .

(بقلم سليم عبد الاحد)

مؤلفين